تمثلات الآخر
في شعر ابن النقيب الفقيسي الحسن بن شاور
ت(687 هـ)

الأستاذ المساعد الدكتور شروق حيدر فليح
مقر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد \ العراق

Representations of the Other in the Poetry of Ibn al-Naqib al-Faqeesi al-Hasan ibn Shawir (d. 687 AH)

Assist. Prof. Dr. Shurooq Haider Falih
Ministry of Higher Education and Scientific Research-Center, Baghdad / Iraq
e-mail: shrooq.dr@qu.edu.iq

المستخلص

كثيرة هي الظواهر الفنية التي شاعت في الشعر العربي القديم، ظواهر أكسبته جمالا وبهاء، عكست بطريقة أو بأخرى مقدرة الشعراء على التمثّل والتمثيل لتلك الظواهر التي نراها ظواهر تستحق الوقفة والتأمل ومن ثم الدراسة، على وفق منهج فني تحليلي يبدأ من النص ومن ثم يعود إليه، والبحث يقوم على دراسة شاعر من شعراء العصر العباسي في عصوره المتأخرة (القرن السابع الهجري)، هو ابن النقيب الفقيسي ت 687ه إذ كتب بأغراض شعرية متعددة من مدح ووصف وهجاء وغزل، شاعر تمكّن من اللغة، فأكسبها في شعره جمالا وبهاء، والبحث يكشف عن تمثلات (الآخر) في شعره، إذ وقفت الباحثة عندها رصدا وتحليلا، محاولة ربط صورة الآخر بالصورة الشعرية، التي تعد المعيار الأهم في تفضل شاعر على آخر، فصورة الآخر في شعره جاءت متعددة مختلفة باختلاف الغرض والغاية، وقفنا عندها مفصلا في ثنايا البحث، محاولين في ذلك كله رصد ذاك الآخر المتعدد، من ثم تقيم ذلك التمثّل تقييما نقديا. مدركة أن الشاعر يخضع لضرورات شكلية فنية تجعل منه متكئاً على أصول معرفية راكزة بحيث تجعله قادرا على تمثّل الآخر أو رسم علاقة الأنا بالآخر، فصار التركيز على (الآخر) في شعر (ابن النقيب الفقيسي) لنكشف للقارئ عن صور الآخر في شعره. فالنص الشعري عنده هو مجموعة من العلاقات المترابطة في ما بينها ترابطا جدلياً قائما على أساس من الوحدة والترابط الفني، والنص الأدبي كلٌّ لا يتجزأ، غير قابل للتجزئة والانفصال، لأن القضية مرتبطة بالمعنى والدلالة فضلا عن الهدف والغاية.

الكلمات المفتاحية: التمثل، الآخر، الشعر، ابن النقيب الفقيسي.

Abstract

The research reveals the representations of the “other” in his poetry, as the researcher stopped at it, observing and analyzing it, trying to link the image of the other to the poetic image. The image of the other in his poetry came in multiple forms, varying according to the purpose and goal. We stopped at it in detail in the folds of the research, trying in all of that to monitor that multiple other, and then to critically evaluate that representation.

Keywords: Representation, Other, Poetry, Ibn al-Naqeeb al-Faqeesi

أولا : في دلالة الآخر في الدراسات النقدية والأدبية

يعد مصطلح الآخر من المصطلحات الفضفاضة التي تحتاج الى تحديد في النسبة، والى اتفاق مفهومي واضح، إذ يتشظى الآخر وتتسع دائرة معناه ليشمل حمولات دلالية تتشابك في علاقاتها مع الذات فقد يكون الآخر في العرق أو الدين أو اللغة أو السياسة، أو حتى الحضارة وقد تنشطر الذات الى الأنا أو النحن وتصير الى نحن الآخر (ينظر: لديك، 2009 : 12). تعتبر دراسة صورة الآخر من القضايا التي شغلت النقّاد في الآونة الأخيرة وذلك بسبب علاقة هذه الدراسات بما يعرف بحوار الحضارات. ظهرت دراسات الصور ولوجيا فى الأدب المقارن في بداية الأمر ولكنّها توسّعت وتجاوزت الأدب المقارن وأصبحت جزءاً من دراسات النقد الأدبي، وبالتالي تجاوز الصورولوجيا دراسة أدب الرحلات- الذي كان المجال الأول لظهور هذه الدراسات – وأخذ يتسرّب إلى الأنواع الأدبيّ الأخرى (لبيب، 1999: 357). وإن التعرف على مفهوم الآخر ودلالته من ضروريات تحليل النص الشعري، كونه يمثل جزءا مهما من أجزاء تشكيل الصورة، لأن «تشكيل صورة الآخر في أبعادها الذاتية والموضوعية، وفي أشكالها ومضامينها، تمر عبر الذات المكونة لهذه الصورة، بكل ما تحوزه هذه الذات من موجهات أيديولوجية وسياسية وخبرات مباشرة، تاريخية ومعاصرة. غير أنه حقيقي أيضاً أن الآخر باختياراته وأفعاله وردود أفعاله يسهم بتأسيس بعض مرتكزات صورته لدي الآخر» (لبيب، 1999: 358). لذلك تعد دراسة صورة الآخر من القضايا التي شغلت النقّاد في الآونة الأخيرة وذلك بسبب علاقة هذه الدراسات بما يعرف بحوار الحضارات. ظهرت دراسات الصور ولوجيا فى الأدب المقارن في بداية الأمر، ولكنّها توسّعت وتجاوزت الأدب المقارن وأصبحت جزءاً من دراسات النقد الأدبي، وبالتالي تجاوز الصورولوجيا دراسة أدب الرحلات- الذي كان المجال الأول لظهور هذه الدراسات – وأخذ يتسرّب إلى الأنواع الأدبيّ الأخرى (شكري، 2017: 86). إن مفهوم الآخر لا يمكن فهمه إلا من خلال الإيمان بضرورة ربط الفرد بالفرد الآخر أو ربط الفرد بالمجتمع أو الجماعة، وهذا التصور قائم على مدى التفاعل الحي المنتج بين الفرد والمجتمع على وفق علاقات مختلفة قد تكون بالسلب أو الايجاب أو بالقبول أو بالرفض، وتحدد تلك العلاقات

بموجب فهم السياق الحاكم لإنتاج النص، «إن تشكيل صورة الآخر في أبعادها الذاتية والموضوعية، وفي أشكالها ومضامينها، تمر عبر الذات المكونة لهذه الصورة، بكل ما تحوزه هذه الذات من موجهات أيديولوجية وسياسية وخبرات مباشرة، تاريخية ومعاصرة. غير أنه حقيقي أيضاً أن الآخر باختياراته وأفعاله وردود أفعاله يسهم بتأسيس بعض مرتكزات صورته لدي الآخر» (ضيف، 1964: 8).

وهذا يعني أن الآخر قد يكون فردا بعينه أو يكون جماعة، أو قد يكون كائنا حياً أو قد يكون جماداً، فالآخر تتحد هويته المطلقة والمميزة من خلال ما يتركه من أثر فاعل ومؤثر في الأنا أو الذات، فقد يكون الآخر صديقاً أو عدواً أو نهراً أو جبلا أو حبيباً، فكلما ترك الآخر أثراً فاعلا في الأنا كان آخر ولكن بتوصيف مختلف، فالآخر يمثل علاقة الشاعر بكل ما يحيطه من أشياء، كل الأشياء التي تؤثر في مشاعره وأحاسيسه، ويكون لها حضور فاعل في بناء نصه الشعري، كون الشعر يمثل نزعة وجودية أو قراءة وجودية للوجود كله، والوجود هو فضاء محسوس ملموس مدرك، فالآخر كل ما هو خارج الذات، يتفاعل معه الشاعر عبر ذاته منتجا خطابا شعريا يعبر عن عمق العلاقة سلبا أو أيجابا، وهذا ما سوف ندرسه في بحثنا في شعر (ابن النقيب القفيسي) المتوفى سنة 687ه محاولين الرصد والكشف ومن ثم التحليل، على وفق منهج فني أسلوبي، نبدأ به من النص ونعود إليه، كاشفين كذلك عن أثر تمثل) الأنا والآخر في عملية خلص الصور الشعرية، رابطين الساقين النفسي والاجتماعي في كل ذلك.

ثانيا : الآخر المختلف

وتظهر هذه الصورة أو العلاقة في غرض (الهجاء)، فالهجاء يقوم على سلب الآخر لكل الصفات الحميدة، إذ تقوم (الأنا) بتجريد ذاك الآخر من كل ما هو حسن، وإضفاء صفات القبح بأنواعها المختلفة، سواء كانت تتعلق بالخلقة أو الأخلاق، يُعرف الهجاء بأنه فنّ يلجأ إليه الشاعر للتعبير عن غضبه وسخطه وما في نفسه من ضغائن وأحقاد تجاه خصومه وأعدائه، ويُشار إلى أنّ هذا الفنّ عادةً ما يرتبط بالحروب والمنازعات، فكان لسان الشاعر في الهجاء في أيام القتال يؤدي دوره مثلما تؤديه السيوف والرماح، ومن الجدير بالذكر أنّ نشأة فنّ الهجاء ارتبطت بالعصبية القبليّة التي كان يمتاز بها العصر الجاهليّ، فالشاعر لسان حال قبيلته يدافع عنها ويهجو خصومها، كما يُلاحَظ في بعض الأحيان أنّ قصائد الهجاء يتخللها المديح أو الفخر لبيان مفاخر النفس أو القبيلة والتقليل من قدر الخصوم أو مَن يهجوه الشاعر، فيُقيم هجاءه على عُنصر المفاضلة (حسين، 1980 : 15). فالهجاء هو «المعاني تدور حول البشاعة والشدة والنكال والكشف... وقد نشأ الهجاء عند العرب كما نشأ عند غيرهم من الأمم تنديداً بالمعايب الشخصية أول الأمر. ثم تقدم عندهم كما تقدم عند غيرهم، وارتفع عن الأحقاد الخاصة إلى عنصر الحياة العامة...» (الفقيسي، 2008 : 68).

ومنه قول ابن النقيب الفقيسي :

أرحْ ناظري من عابس الوجه يابسِ له خلقٌ صعبٌ ووجه مقطّبُ (بحر الطويل)
أقولُ له إذ أيأستني صفاته وإن قيل لي إني في المطامع أشحبُ
متى يظفر الآتي إليك بسؤله وينجح في مسعاه قصد ومطلبُ
ولؤمك سيّارة وشرّك ياسرُ ووجهك عباس وخلقك مصعبُ

(الفقسي، 2008: 61)

لقد كشفت الأبيات هذه عن علاقة الشاعر بالآخر، فبدت علاقة لا يسودها الود والصفاء، فالشاعر أضفى على الآخر المختلف صورا ساخرة، فقد وصف وجهه بالعابس،

والخلق الصعب، ثم استكمل الصورة بصورة أخرى، فقد وصف باللؤم وهي من الصفات المذمومة عند العرب، ثم أخذ يؤكد على صفة العبوس والخلق الصعب مرة أخرى، مشكلا في ذلك كله صورة شعرية عن ذلك الآخر المختلفة، مدركا أن «الصورة الشعرية الدعامة الأساسية في تكوين النص الأدبي إذ إنَّ الشاعر يتخذ منها وسيلة يعبر من خلالها عن رؤياه الخاصة، ومن خلالها يمكن أن ينقل أحاسيسه وأفكاره وما يجول في خاطرة إلى المتلقي؛ بصورة مقبولة فضلا، على أنّها يمكن أن توفر إمكانيات شعرية استثنائية تكون في غاية الدقة والعمق؛ ولذا كلما ابتعدت الصورة عن المباشرة كانت أكثر عمقـاً وجماليةً». (أسماعيل، 1983: 12) لقد بني النص الشعري هنا على أساس تقديم صورة سلبية عن الآخر للمتلقي

ومنه قوله في ذم جار له :

لـــــيَّ جـــــــارٌ شـخـصـه إكـسـيـر أوصـــــاف المعايب

حـــســـــدا لـــجـــبـــيـــرة فـيـه وعـــــــــــداوات الأقـــــــارب

لـــيـــتـــه لـــــم يـعـنـنـي لـــم يـكـن عـــون الـنـوائـب

(الفقيسي، 2008: 61)

لقد صوّر الشاعر الآخر المختلف (جاره) بصفات سلبية، يتمثل الآخر في هذا المبحث بصورة (المختلف)، فالأنا الشاعرة اختلفت مع الآخر فكراً وموقفاً، فأخذت الأنا تعبر عن ذلك الاختلاف شعراً في خلال صور شعرية خاصة، كشفت عن ذلك الاختلاف، بوساطة تراكيب شعرية عبرت عنه، فنجد الشعراء يصورون الآخر المختلف صوراً ساخرة تقلل من قيمته ومن شأنه، يضفون عليه أبشع الصفات والصور على مستوى الصفات الجسمانية والصفات السلوكية، مما تعطي المتلقي انطباعاً خاصاً عن الآخر بموجب المعطيات الصورية التي رسمها الشاعر عنه. ومن أوضح الأغراض الشعرية تمثلاً لهذه العلاقة، علاقة الأنا بالآخر المختلف هو غرض الهجاء الذي يعد من الفنون الأدبية التي وجدت في الآداب العالمية، ووجدت في الأدب العربي منذ الجاهلية رافق نشأة الأدب العربي بعامة والشعر العربي القديم بخاصة عبر في خلاله الشعراء عما يشعرون به بتعابير وصور وعاطفة

ثالثا : الآخر الرسمي

وهو الذي يكشف عن علاقة الشاعر بأمراء عصره، فقد وقف عندهم مادحا، محاولا الكشف عن خصالهم، بطريقة فنية معبرة، قادرة على توصيف تلك العلاقة، بفاعليته التعبيرية ـ على تنظيم وتنسيق الوحدات الجزئية، التي يتشكَّل منها النصّ، وذلك لإعطاء القصيدة شكلاً متسلسلاً يشبه السلسلة المتصلة الحلقات، إذ تمتلك هذه الوحدات ـ في إطارها النسقيّ ـ أهمية بالغة في حركة التقاطع والانشطار في المحاور الرئيسية المُشكِّلة لبنية القصيدة، وبذلك تتكشَّف الرؤية الشعرية، بتفاعل البنية التكرارية وتكاملها مع الوحدات البنائية للكلمات في سياقها العام؛ وذلك لتشكيل كَمٍّ هائلٍ من الدلالات اللامتناهية، تسهم في الكشف عن التحولات المفاجئةِ التي تطرأُ على المحاورِ لحظة تقاطُعِهَا، والعناصرِ لَحْظَة تَفاعُلِها، والأَزْمِنَة لَحظْة تَوالُجِهَا. أمّا دوافع شعر المديح فأعني بها الأسبابَ الّتي دفعت الشّعراءَ إلى إنشاء قصائدهم المدحيّة؛ ومنها: الإعجاب الخالص بالممدوح ومناقبه ومآثره في الحياة، أو شكره على معروفه، وكالرّغبة في صلة الممدوح، أو استصراخه وطلب النّجدة منه، أو استعطافه ليعفو ويصفح، (إسماعيل، 1983: 12).

وقال يمدح الأمير سيف الدين المنشد :

يـا أيـهـا السيف الـذي إحـسـانـه مُـشْـهِـرُهُ (مجزوء الكامل)

أفـديـك سيفا لـم يزل يـروقـنـا مـنـظـره

ذكـاؤهـا صيقله ولـفـظـه جـوهـره

(الفقيسي، 2008: 110)

لقد أضفى الشاعر على الآخر الرسمي صفات وخصال حميدة، استمدها من معايشة واقعية ومشاهد بصرية، حية، صيرها صورا شعرية لذلك الآخر، فقد وصفه بالسيف كناية عن شجاعته، ولفظه العذب كناية عن بلاغته وفصاحته، لذلك تعد الصورة الفنية أساس الخلق الشعري، فهي تشكيل جمالي ونفسي يتكون مما التقطته حواس الشاعر المبدع من مدركات حسية أو معنوية، بحسب طبيعة تأثره بها، حتى يمكن أن نطلّ منها على الباعث

النفسي المتواري خلف ألفاظ القصيدة ومكوناتها الفنية وأسسها البنائية ومهيمناتها الأسلوبية، وما تركته التجارب والمشاهد التي رافقت حياة الشاعر من آثار عميقة الغور في وجدانه، فتتدفق احساساته بصياغات جمالية محسوسة ومشحونة بعاطفة تستجيب لها نفس المتلقي على نحو تلقائي لتلمس انفعالات الشاعر وخلجات نفسه المعبرة عن نبوغه الفني وعبقريته الشعرية الفذّة عن طريق ربط الخيال بالصورة فالخيال هو الذي يرسم الصورة ومن خلاله تكون الصورة المرسومة جميلة أو قبيحة، ويتوقف ذلك على سعة خيال الشاعر واتساع مداركه فضلاً عن الغرض الذي ينظم فيه (عصفور، 1992: 12)

ومنه قوله في مدح الأمير سيف الدين كذلك :

عَلَتِ الجزيرةُ قدرا عندما حلَّ في أرجائها الندب علي (البحر الرمل)

أخضبت سهلا ووعرا وكذا كـلّ أرض يتولّاها الولي

(الفقيسي، 2008 : 150)

لقد بنى الشاعر صورة الآخر الرسمي، وهي صورة الأمير سيف الدين، وحاول إضفاء الصفات الحميدة عليه، فالسهلُ قد اخضب، والأرض غدت سهلا يسيح بالحياة، فالجزيرة صار لها قدر ورحب، بعدما ملئت حزنا وندبا، فالشاعر أحكم في هذين البيتين المديح، وجعله قائما على ثنائيات متقابلة، فقد قابل بين حال الجزيرة قبل وبعد مقدمه واليا عليها، فالصورة هنا صورة قائمة على تجليات الفعل والعمل والسلوك، فربط في ذلك الوصف بين (الواقع) و(الواقعية)، جاء ذلك كله ضمن تماسك لغوي شعري، فالأخبار للشخصية الرسمية (الآخر الرسمي) تدخل في تمحور حكائية الذات ضمن انتقالات مختلفة ومتعددة في توليد صراع نفسي وذاتي على مستوى سرد المنجز الفعلي له بإنجاز الاستعارة الذهنية وتوليد خلق الصورة الحكائية في تحريك بؤرة الحدث وتدوير المكان في «الطريقة الفنية الممكنة التي تمتزج بها الأزمنة والأمكنة» (الصكر، 1999: 259)

رابعا : الآخر \ الصديق

علاقة الإنسان بالصديق علاقة حميمة روحية وجدانية، وقد وقف الشعراء قديما مصورين عمق هذه العلاقة، صفاء ووفاء وعطاء، ولا يكاد يخلو شعر شاعر مر العصور على نماذج شعرية تصور جمالية تلك العلاقة، أما الشاعر ابن النقيب فقد كشفت بعض أشعاره عن علاقة حميمة بالصديق، فقد أضفى عليها معاني الحب والشوق والحنين، صاغها بلغة شعرية تجلّت فيها تلك العلاقة بصورة جميلة، عكست البعد الإنساني للشاعر، ومنه قائلا في صديقه (مظفر الدين الذهبي) :

منعتني أن أراك خيزلُ ضاق صدري وضاق السبيلُ (البحر الخفيف)
هي ما بيننا تجول وما ين كرُ تصحيف من يقول تحولُ
منظر مثلما رأيتُ مروّعٌ وسماعٌ كلما سمعتُ مهولُ
وجِـمـالٌ محمّلات قد قا بلها مثلها عليها حمولُ
وبغالٌ تأتي بزبل فتلقّا ها بغال غشم عليها طبولُ
وصـراخ وغاغة وصياحٌ وبغيضٌ وغائظ وثقيلُ

(القفيسي، 2008: 145)

لقد استطاع الشاعر أن يوظف الآخر في هذه المقطوعة مجتمعة ليشكل بمجملها صورة شعرية تضافرت الدلالة فيها وتواشجة الصورة عبر نسق تعبيري خاص , منتقلا فيها جميعا من المحسوس الى المجرد ومن المجرد الى المحسوس , ومن المعقول الى غير المعقول والعكس , والهدف من ذلك كله إحداث الدهشة في المتلقي، فقد جعل صورة الآخر محاطة فيها حركية مؤثرة الصورة الشعرية في هذه المخمسة الشعرية مركبة، إذ تداخلت الصور الشعرية فيما بينها، أنتج ذلك التداخل والتراكب صورة شعرية استعارية متسمة بالحركية والنماء الدلالي، فبدأها بتصوير مجازي، إذ صور الآخر \ الصديق، فالشاعر عبّر عن علاقته بذلك الآخر تعبيرا حسيا، فهو يخشى هجرته ومعرفة أسبابها، وبالمقابل يتجنب عتابه، لأنه ترك العتاب للعتاب، وبذلك قدّم للمتلقي صورة شعرية مبنية على العلاقة الروحية التي تربطه بالآخر مستعملا في ذلك الصورة الاستعارية

ومنه قوله في صديقه الشاعر (شهاب الدين محمد ابن الخيمي)، إذ يقول :

حبُّهُ خالط ورحي فغدا وهو ممزوج بلحمي ودمي (البحر الخفيف)
يا شهاب الدين يا من فضله مثل نور الشّمس أو كالعلم
أوحشت سمعي معانيك التي مثل إشراق العُلا بالهمم
تكتبُ النفسُ ضياء ساطعا فترى الأنوار ضمن الظُلم
يا شهاب الدين والدنيا معا يا كريم الخيم يا بن الخيمي
فضل هذا العسر فضلٌ ظاهرٌ فتصدّق فيه وأفضل وانعم
بـقـريـض مـنـك تكتبه عـربـي ّ معجمٌ للفهم

(القفيسي، 2008: 156)

عبر الشاعر عن علاقته بالآخر \ الصديق من خلال صورة شعرية رسمها، فهو جزء من ذاته، فهو الروح والجسد، بهذا الوصف بدأ قصيدته، ثم انتقل رساما صورة شعرية قوامها التشبيه، فقد شبّه شهاب الدين بالشمس دلالة على جماله، وبالعلم في علوّلا مكانته سعة قدره، ثم نعته بالكريم، ثم ختم القصيدة بوصفه إياه بالشاعر الفصيح البليغ، ومن مجمل هذه الصفات والنعوت تكوّنت صورة الآخر في هذه الأبيات، استطاع من خلالها ربط المجرد بالمحسوس والمحسوس بالمجرد، فاستطاع في ذلك أن يجعل «كل نسقٍ صورةً حسيةً للتعبير عن أحاسيسه الحزينة المتقدة... بما يحمله من مفارقة بأنساقه التصويرية المُعبِّرة عن شعورٍ صادقٍ» (كتيب، 2019 : 58)

ومنه قوله في صديقه الشاعر محمود سلمان الحلبي :

يا فاضلا وافى محليَ زائرا متفضلا والفضل للمتقدّمِ (البحر الكامل)
ومُشرّفي ومشنّفي بسلامه وكلامه ومبجّلي ومعظّمي
أنت الشهاب الثاقب الذهن الذي أضحت ذُكاء إلى ذكاه تنمتي
والواضح الخطُّ المحقق أصله والطاهر القلم الموقع والفمِ
شعرٌ كنثر الدّرُّ أو تبرٍ غدت في خجلة منه دراري الأنجمُ

(القفيسي، 2008: 175)

بدأ النص الشعري بتعداد الصفات والمحاسن، فقد وصف صديقه الشاعر بصفات حميدة، فهو الرجل الفاضل ذو الفضل الكبير، صاحب اللسان الفصيح البليغ، ثاقب الذهن، سديد الرأي، ذكي، واضح الخط، شعره مثل الدر المنثور، بهذه الصفات والخصال تحددت للقارئ علاقة الشاعر بالآخر الصديق، فالقصيدة هنا عبارة عن «وحدة موضوعية ذات خصائص تتصل بحال المضمون الذي تحكيه القصيدة أو الواقعة التي تتفعل بحكايتها، ثم إن القصيدة الحكائية بالمعنى الفني تضفي على بنائها العام وحدة عضوية بسبب وحدة الموضوع والمشاعر والصور والأفكار بالشكل الذي تتكامل في بنية القصيدة ذاتياً» (الصكر، 1999: 249)

خامسا : الآخر الطبيعة

إن للطبيعة مكانتها المتميزة في الأدب العربي، وقد أولاها الشعراء عنايتهم واهتمامهم لما فيها من الأثر الواضح في نفوسهم وخيالهم، فضلا عن اغناء معجمهم الادبي وصقل مواهبهم وما تمنحه من تميز وجمال على مستوى الصورة الأدبية فرسم لنا الشاعر العربي من خلالها لوحات بارعة في الطبيعة حتى غدت الأغراض الشعرية مسرحا مفتوحا لألفاظ الطبيعة مفعما بالجمال والروعة (هادي، 2021: 11). لم تكن علاقة الإنسان بالطبيعة جديدة العهد لأنَّها تمثِّل المحيط الخارجي لحياته، وبيئته التي تمتزج معه، «وصلة الفن بالطبيعة مقرَّرة، فالشعر والنحت والتصوير والموسيقى ليست في الأصل إلَّا تعبيراً عن الطبيعة وصدىً لها فالشعر يعدُّ تمثيلاً للطبيعة وملاذاً لصراع الذات البشرية مع الأشياء فتحاول التخلُّص منها عبر اللجوء إلى هذه الثنائية (الانسان- الطبيعة) القائمة منذ الأزل.» (نوفل، 1945: 11). فالشعراء تفاعلوا معها تفاعلاً حياً يؤكد عمق حبهم لها فلا يخلو نتاجهم من وصف الطبيعة والتغني بها «والشعر عند العرب مادة وفيرة ومجال واسع لظهور هذا الإحساس والمعرفة والتصوير لمظاهر الطبيعة، وقد كانت الطبيعة من أهم مصادر الإبداع الفني، فالجمال الفني هو تقليد الطبيعة تقليداً إيحائياً تمثيلياً حياً» (مريم، 2015: 25) فلها الأثر المهم والواضح الذي أسهم في صقل قريحة الشعراء ؛ فهي مصدر للإلهام ورافدٌ زاخرٌ ظل يمدّ الشعراء بالأدوات التصويرية الخلابة التي تستهوي القارئ، فضلاً عن ذلك فإن الطبيعة والتفاعل معها تعمل على تزويد التعبير البياني عندهم بإشعاع بياني دلالي (القيسي، 1970 : 380) بسبب من طبيعة العربية، فالحياة العربية حياة تفردت في القفار والوديان، فالعربي سلك المهامة الموحشة فتداخلت لديه الظنون وتكونت لديه التصورات وتضخمت في مخيلته الأجسام وانعكس ذلك كله في الشعر العربي القديم بصورة واضحة تدلل على مدى تأثر حياتهم بالطبيعة حيث الطبيعة الصامتة والطبيعة غير الصامتة (الحية) (رجب، 2015: 2). تفاعل معها الأدباء مع الطبيعة وصوروها أجمل تصوير، وصفاً تجاوز المباشرة والتقرير والإتجاه بها نحو الشعرية الممزوجة بالعاطفة، فجاءت التوظيفات متعددة، اشتملت على توصيفات وصور أدبية

عكست عمق الترابط الروحي بين الأديب والطبيعة التي عاش فيها أو شاهدها، فتركت في وجدانه شعوراً وعاطفة عبر عنها أدباً، فالأدباء ليسوا «بعيدين عن الطبيعة بعد أن وجدوا طريقهم الى الكلمة الرقيقة العذبة، والصورة المعبرة والمعنى المتسامي، وكان شعراء العربية يلجأون إليها، ليبثوها أشجانهم ويصوروا أحلامهم، وفي شعر الطبيعة نجد أن الصورة قد أسهمت إسهاماً مهماً في بناء القصيدة، فحملت الأفكار والذكريات والمعاني...» (رجب، 2015: 4)

ومنه قوله في وصف الحر :

في زمان يشوي الوجوه بحرٍّ ... ويذيب الجسوم لوكنَّ صخرا (البحر الخفيف)

لا تطير النسورُ فيه إذا ما ... وقفتْ شمسه وقارب الظهرا

يشتكي الضبُّ ما اشتكى الصبّ فيه ... ولحربائه إلى الظلّ حرّا

ويودُّ الغصن الرطيب به لو ... أنه من لحائه يتعرّى

(القفيسي، 2008: 97)

الأبيات هنا كشفت عن علاقة الشاعر بالطبيعة والمحيط الذي يعيش به، حيث الحر والحيوانات والأشجار، جعلها الشاعر ممزوجة في مشهد صوري بصري واحد، فالشاعر يصور شدة الحر ويصف الحيوانات وهي تواجه ذلك الحر اللاهب، فالحر يشوي الوجوه ويذيب الجسوم، وزاد من المبالغة في شدة الحر، يرى أن الحر يذيب حتى الصخر، فنستشف من خلال تلك التوصيفات أن الشعر نتاج البيئة المعيشة، يحاول الشاعر خلق الصورة الشعرية للآخر الطبيعة، فالطبيعة هنا طبيعة صورية خاضعة لضرورات التعبير الفني، فالآخر هنا آخر طبيعة حية.

ومنه قوله :

وليلة أظلمت جوانبها ... فلا نجومٌ ولا سماوات (البحر السريع)

ضلّت بأفلاكها كواكبها ... وكم بها في الدجى هاديات

وأوقد البرقُ من مشاعله ... لها ودقّت للرعد كوسات

(القفيسي، 2008: 73)

تتفاعل الطبيعة هنا فيما بينها وتنسجم الجوانب النفسية والشعورية على اعتبارها مكونات حساسة تُنسج داخل النسق الشِعري مع تقلباته الذاتية، فقد وصف الطبيعة هنا بصفات خاصة، فجعلها مترابطة في الوصف، إذ بدأ بوصف الليلة حينما تظلم، فقد بالغ في ظلمتها، فهي لا نجوم ولا سماوات، فهي ليلة نجومها ضلت بأفلاكها، وبكواكبها، ثم استكمل الوصف بوصف البرق، فهو برق خاطف لاهب، فهذا الوصف للآخر الطبيعة قد تم على وفق تسق لغوي وأشكال لغوية وهذه الأشكال اللغوية «لا يُمكن القيام بهما إلا متى تمّ بسطُ مشكل الارتباط الأساسيّ بين الكينونة والحقيقة» (هيدجر، 2012: 605).

سادسا : الآخر \ المرأة

تعد المرأة عنصراً بارزاً ورافدا رئيسا في الخطاب الشعري، ولشخصية المرأة حضور مميز في المنجز الشعري، فالقصيدة بعامةٍ هي رجل وامرأة، والقصيدة هي فن الحوار بين الطبيعة والأشياء بوساطة الخيال الذي يستمد مقوماته من تجارب الحياة، وفي القصيدة العربية تعددت صور المرأة وتنوعت، فهناك صورة المرأة المنتاقضة مع واقعها، و وهنالك صورة المرأة المستقيمة، التي تحمل صور الخصائص ومعاني حضور المرأة الإنساني وتفردها الأنثوي، وبنية الشعر تقوم على هذا الحضور، فالمرأة ذات معطيات جمالية واجتماعية، فهي تمد الأديب بمادة غزيرة (الطائي، 2008 : 45) فالمرأة لم تكن "رمزاً للمُتعة، أو ملهاة يبتلى بها الرجل، بل كانت رمزاً بكل ما هو جليل ومقدس، فهي رمز للأم أو الأخت حينا و الحبيبة، وللأرض والثورة حينًا آخر، وهي حينًا ثالثاً يعبر عن ذاتهم المفقودة أو المستترة وهي من قبل هذا وذاك رمزٌ للخصوبة والولادة المتجددة ومن قبل هنا فإنّ الشاعر لم يتكئ على جسدها، أو يسبح في أحلامه الوردية حيالها، وإنها أتخذ منها ذاتًا أخرى تتصل بأكثر من وشيجة بذاته المُبدعة فمنحها أفضل ما يستطيع من الإجلال، والإكبار، وكان طيفها الأثيري ماثلاً أمام عينيه ومقيمًا في وجدانه" (العاني، 2005: 4)

ومنه قوله :

وما لي سوى عين نظرتُ لحسنها وذاك لجهلي بالعيون وغرّتي (البحر الطويل)

وقالوا : به في الحب عينٌ ونظرةٌ ولقد صدقوا عينُ الحبيب نظرتي

(الفقيسي، 2008 : 73)

راسماً في ذات صورة شعرية ذات أبعاد مختلفة، كان العامل النفسي فيها عاملا فاعلاً مسهماً في جعل الصورة كاشفة عن ذلك البعد، فالشاعر ركز في صورته الشعرية على جسد المرأة (العين)، فقد غرّه جمالها، حيث النظرات الجميلة الساحرة، فقد قرن جمال العين بالحب، فهي مثير وجداني عاطفي، مما أثارت في ذاته العاطفة الجياشة وشعور نفسي داخلي كبير، «وهذا يعني أنّ الصورة الشعرية هنا قد تشكلت داخل النص

لتكشف عن بعد نفسي آخر للشاعر» كشف عنه الشاعر بوساطة اللغة الشعرية الكاشفة عن ذلك كله.

ومنه قوله :

أراد الظبي أن يحكي التفاتك وجيدك، قلت : لا يا ظبي فاتكْ (البحر الوافر)

وقدُّ الغصن قــدّكَ إذ تثنّى وقال : الله يبقي لي حياتكْ

و يا آس العذار فدتك نفسي وإن لم أقطف بفمي نباتكْ

ويا ورد الورود حمتك عنّي عقارب صدغه، فأمن جناتكْ

(الفقيسي، 2008 : 23)

الأبيات هنا جاءت بقالب فني جميل خلقه الشاعر ليقدم قصيدته أو مقطوعته إلى القارىء بوساطة معانٍ تمكنه من البوح فيما يخالجه من مشاعر وأحاسيس , وعلى هذا يمكن القول أن الصورة تقوم على جملة من العلاقات التي ينظمها خيال الشاعر , يربط العالم الداخلي والخارجي ربطا حسيا من خلال علاقة المشابهة (التهاوني، 1996: 100) فقد أضفى على الآخر الحبيب صفات خاص، كشفت عن علاقته به، فقد رمز للمرأة بالظبي الجميل ومن ثم بالغصن الغض، ومن ثم بالوردة، فهذه التمثلات الوصفية تكشف عن مقدرة عالية في رسم الصورة البصرية في أبعادها الكلية، جاعلا المرأة في ذلك كله مشهدا حسيا بصريا، يمتع القارئ.

الخاتمة

يقوم البحث على الكشف عن تمثلات الآخر في شعر (ابن النقيب القفيسي)، والوقوف عند ذلك التمثل ومن ثم ربطه بعملية تكوين الصورة الشعرية، فجاء الآخر على وفق صور متعددة، كل تمثل يكشف للقاريء عن موقف خاص، فالآخر الطبيعة والآخر المختلف والآخر الرسمي والآخر المرأة قد كشف كلّ منهم عن موقف، وهذا الموقف عبّر عنه الشاعر فنيا، فالصور مختلفة والمواقف كذلك مختلفة، ومن هنا جاء البحث ليقف عند نماذج شعرية مختلفة، كشفت عن تمثلات مختلفة، صاغها الشاعر بلغة شعرية فنية جمع فيها المتعة بالمنفعة، وعلى وفق محددات تعبيرية جمالية، بيد أن اللغة الشعرية في كل تمثّل قد جاءت متفاوتة، فأعلاها تعبيرا مع الآخر الحبيب والصديق، كون هذين التمثلين ألصق بالذات وأقربها إليها، تنم دلالته على حالة الاتساع والارتفاع عن التعبير السطحي التقريري المباشر، ويرمي بها إلى إبراز طاقة الشاعر الذهنية والفنية لمعطيات الآخر التي قد تكون مجازية من حيث التعبير والتوظيف، من خلال إدخال تجربته الشعرية التي تمنح النص قوة جذب المتلقي، لأنّ نشاط المخيلة في خلق الفضاء الملائم لاستيعاب المتلقي يتطلب من الشاعر أن يتخيل بفعالية عالية حتى يتمكن من معايشة الشاعر للآخر الجديد وابتكار عالم مكاني جديد قادر على توجيه مسار الرؤية الشعرية وخصوبة التصوير، فالآخر في شعر القفيسي جاء ليكشف عن تجربة شعرية رائدة قادرة على الرصد والكشف والتحليل، صاغ كل ذلك بلغة شعرية جميلة.

المصادر

أولا : الكتب المؤلفة

- إسماعيل، عز الدين (1975)، التفسير النفسي للأدب، دار الثقافة، دار العودة، لبنان.
- التهاوني (1996) محمد علي كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم , العلامة, تقديم : د. رفيق العجم , تحقيق : علي دحدوح , مكتبة ناشرون (بيروت) , الطبعة الاولى.
- حسين، محمد (د،ت) الهجاء والهجاءون في الجاهلية، محمد حسين، مطبعة أحمد مخيمر، مكتبة الآداب،
- الديك، إحسان (د.ت) الآخر و أثره في شعر ميمون الأعشى الكبير ميمون بن قيس جامعة النجاح، نابلس
- شاور، بن الحسن ت (687) هـــ (2008) شعر ابن النقيب الفقيسي، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور عباس هاني الجراخ، دار الفرات الإعلامية، العراق، المسيب
- الصكر، حاتم (1993) مرايا نرسيس، الأنماط النوعية والتشكيلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة
- ضيف، شوقي (1974) العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر.
- عصفور، جابر (1993) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب , د. جابر عصفور , المركز الثقافي العربي , بيروت , ط3
- القيسي، نوري (1970) الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، الشركة المتحدة للتوزيع، الطبعة الأولى.
- القيسي، نوري، (1983) الطبيعة في الشعر المغربي القديم، نوري حمودي القيسي، منشورات جامعة بغداد.
- لبيب، الطاهر (1999)، صورة الآخر العربي ناظرًا ومنظورًا إليه، تحرير: الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1
- مارتن، هيدغر (2012) الكينونة والزمان، ترجمة : فتحي المكسيني، مراجعة إسماعيل المقدس، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى، 2012
- نوفل، سيد (1945) شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوفل، مطبعة مصر، القاهرة، (د.ط)

الرسائل الجامعية

- الزهراني علي بن محمد (2008) المرأة في شعر يحيى وفيق، علي بن أحمد الزهراني، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة مؤتة
- الطائي حميد، جاسم، (2008) تجليات صورة المرأة والنسق الثقافي في الشعر العراقي (1875ـ 1945)، : كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة بابل
- العانـي، لـؤي، المعذب في الشـعر العراقـي الحديث، أطروحـة دكتوراه، جامعـة بغداد، كليـة التربية ابن رشد، 2005
- مريم، العكة، (2015) الطبيعة في الشعر الجاهلي ودلالات عناصرها، امرؤ القيس انموذجاً، رسالة ماجستير، الجزائر، جامعة زيان عاشور
- هادي، غفران محمد (2021) الطبيعة في شعر ابن مطروح (ت: 649ه)، رسالة ماجستير جامعة القادسية، كلية التربية، قسم اللغة العربية.

البحوث المنشورة

- شكرى، مسعود (2017) صورة الآخر الإسرائيلي في رواية "المتشائل" لإميل حبيبى إضاءات نقدية فصلية محكّمة السنة السابعة العدد السادس والعشرون صيف ١٣٩٦ ش / حزيران
- كريم، عدنان (2015) روافد صورة المرأة في شعر خالد الكاتب (ت 269 هـــ) الطبيعة الحية والصامتة انموذجاً، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، مج:21، ع: 87